

نُكُوصٌ مِّنْ لِّيُؤَافِرِي

ليون الإفريقي

وبعد وفاة الباب "ليو العاشر" ساءت الأحوال بالنسبة إليه. والأرجح أنه غادر روما إلى تونس حيث عاد إلى الإسلام من جديد وعاش بقية حياته إلى أن توفي بها عام 1552م.

وقد ظل هذا الكتاب المصدر الوحيد المعتمد عليه في معرفة أحوال شمال أفريقيا ووسطها لمدة ثلاثة قرون. حين بدأ الرحالة الأوروبيون في حركة استكشاف الصحراء ومعرفة أسرارها.

وإذا كان من عادة "ليو" أن يقتبس من سبقوه في الكتابة عن هذه المناطق كالإدريسي والبكري وسواهما - فإن ملاحظاته الشخصية كانت واضحة للغاية خاصة فيما يتعلق بوصفه للحياة الاجتماعية في المغرب الأقصى ومصر. أما بالنسبة لليبيا فيبدو أن إقامته بمدنها لم تكن طويلة. إذ اكتفى بوصف أهم معالمها في عصره - رغم أنه يذكر زيارته لها وأنه عمل تاجراً بها. إذ "اشترى من برقة بعض التجار بعض الأغنام والسمن"².

وقد ترجمت المفتطفات التالية من ترجمة "جون بوري" J. Pory التي نقلها عن الإيطالية عام 1600م. عن طبعة مكررة بمقدمة وهوامش بقلم الدكتور "روبرت براون" R. Brown. وحرصت على نقل ما وجدته مناسباً من تعليقات "بروان" التي سجلها عام 1895م. إذ أصبحت هي الأخرى من جملة النصوص التي تبين ما كانت عليه البلاد في تاريخها البعيد والقريب.³

1 - ص XIX من مقدمة براون.
2 - يحسن أن يعود الفارئ - لمزيد من الفائدة - إلى مقالة الدكتور نقولا زيادة (ليبيا من حسن الوزان إلى التصغوني) المنشورة في مجلد (ليبيا في التاريخ) ص 249 وما بعدها. ويستفيد من ترجمته وتعليقاته.

تعريف

هذا مؤلف عربي اسمه الأصلي: الحسن بن محمد الوزان الفاسي¹. وقد عرف في الغرب وفي الدوائر العلمية باسم "ليو أفريكانوس" Leo Africanus أو "ليو الأفريقي" بسبب أنه جاء من أفريقيا أو لأنه كتب عنها مجلده الضخم (وصف أفريقيا) Description of Africa. وعرف أيضاً بـ "الغرناطي" وباسم "جيوفايني ليوني" Goevanni Leone. ولد في غرناطة بالأندلس عام 1494 م. أو 95. في أثناء محنة المسلمين فيها. من أسرة ميسورة الحال. هاجرت - فيما بعد - إلى فاس بالمغرب الأقصى. وقد قضى طفولة وشباباً فاسيين. واستطاع - برغبته الصادقة وذكائه المتميز - أن يكون نفسه علمياً رغم قسوة الحياة ومشاقها. وعمل جندياً وتاجراً، وقاضياً، وفقهياً، وكاتباً، وإماماً، وسفيراً لبلات فاس لدى تمبكتو. وقام برحلات كثيرة إلى ليبيا ومصر والحجاز وبلاد فارس والأناضول. ودواخل أفريقيا حتى تشاد وحول نهر النيجر. وعاصر - إلى جانب سقوط الأندلس - حكن المماليك لمصر. وسقوط القاهرة في يد العثمانيين.

وفي أثناء رحلة ثانية قام بها بحراً إلى القسطنطينية، وقع أسيراً في يد بعض قراصنة البندقية عند جربة فحملوه - لما تبينوا علمه - إلى البابا "ليو العاشر" - فأكرمه هذا وحرره وعمل على تنصيره. وقد أعلن تنصره - ربما بضغط الحاجة والخوف - وعاش في روما حيث وضع كتابه الشهير الذي يبدو أنه سجله بالعربية أولاً، أو نقله من جذاذات كان يحتفظ بها إلى اللغة الإيطالية. وطبع الكتاب لأول مرة في أثناء حياته عام 1550م.

1 - في الأصل الإنجليزي الذي ترجمت عنه تقرأ: (الوزان Al-Wazzaz) برائين. لكن الصواب هو (الوزان) - بنون في آخره.

تملكها المسلمون في عهد الخليفة عمرا حين حاصر المسلمون حاكم طرابلس مدة ستة أشهر متوالية وأجبروه في النهاية على الفرار إلى قرطاجنة2. وقد قتل فريق من أهل المدينة وحمل فريق آخر أسيراً إلى مصر والجزيرة العربية، كما يقرر أشهر مؤرخ أفريقي (لأفريقية) - ابن الرشيد3.

عن مدينة طرابلس الحديثة في شمال أفريقيا

بعد تدمير طرابلس القديمة4 بنيت مدينة أخرى بالاسم نفسه، وهي مدينة أحيطت بأعلى وأجمل الأسوار لكن على غير متانة، وهي تقع في سهل رملي ينتج مقادير من التمور، وبيوت هذه المدينة أكثر فخامة، مقارنة ببيوت تونس. وهنا كذلك يوجد لكل جارة وحرفة مواضع عديدة كما يكثر فيها النساجون. وليس فيها آبار أو عيون، وإنما يأخذون الماء من الصحاريح، ويجاوز سعر الحبوب في هذه المدينة الحد، إذ أن كل حقول طرابلس رملية وقاحلة مثل حقول نومديا، والنسب يكمن في أن الجزء الرئيسي الخصب من أرض هذه المنطقة غمره البحر، ويؤكد أهل هذه البلاد أن القسم الأكبر من حقولهم في الشمال ابتلعه البحر الأبيض المتوسط، وهو أمر يلاحظ أيضاً في بلاد المنستير والمهدية وصفاقس وقابس وجزيرة جربة، وأماكن أخرى أمعن ناحية الشرق، حيث

1 - المقصود: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي الأصل: الخليفة عمر الثاني Califa Homer the Second والصواب: الخليفة الثاني عمر.
2 - Tripoli Vechia = Old Cities of Tripoli، وطرابلس "المدن الثلاث" في الأصل اتحاد بين ثلاث مدن هي: أوبا وصبراته وليدة، وكانت المنطقة تدعى Libya Tripolitania، وقد أطلق اسم طرابلس Tripoli على أوبا بعد أن احتلها المستوطنون الناطقون باليونانية، وهي عند بليني: Oea، وعند بطليموس: Ewa، وعند بعض الجغرافيين: Ocea، وقد سكنها المستوطنون الصقليون والليبيون المحضرون معاً - (براون).
3 - The most famus African Historiographer ولعل المقصود بابن الرشيد Ibn Rachith ابن الرشيد السبتي صاحب "ملء العيبة" - مخطوطة بالاسكوريال خت رقم 1736، وقد نشر احسان عباس ومحمد يوسف ختم ما يخص طرابلس من رحلته في "ليبيا في كتب الجغرافية والرحلات"، وهي رحلة بحرية، إلا أنه رسا عند طريق ونزل بطرابلس ليوم وليلة، وليس في المنشور في الرحلة شيء عن تاريخ طرابلس.
4 - إن المعنى بهذا ليس أوبا - كما يفترض أحياناً - تلك الواقعة على أنقاضها طرابلس الحديثة الحالية، بل Tripoli Vechia أو صبراته، ويقال إن أسوار طرابلس الحالية بناها درغوث (القائد البحري المعروف الذي يبجل صرحه هناك كل التجليل)، ورغم أن هذه الأسوار بدأت تنهار الآن إلا أنها تبين عن عمل متين، وهذا لا يتفق مع وصف ليو لها بأنها عالية على غير متانة، ولم يكن ليو ودرغوث متعاصرين، فإن درغوث جاء بعد ليو وعليه فإن هذه الأسوار قد تكون بنيت أو قويت بعد زيارة ليو لطرابلس، ولا تزال أشجار النخيل كثيرة كذي قبل، والسهل الرملي الذي يتحدث عنه رحالنا مركزش بهال (براون).

عن بلدة زوارة

هذه البلدة التي بناها الأفارقة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وتقع على بعد نحو خمسين ميلاً شرقي جزيرة جربة، وهي ذات سور ضعيف وسكان معوزين، لا يقومون بشيء سوى صناعة الجير واستخراج الجبس يبيعونه في ملكة طرابلس1 أما حقولهم فهي جرداء للغاية، وتضيق غزوات النصارى على السكان الخناق باستمرار، وبخاصة منذ استولى النصارى على طرابلس2.

عن بلدة لبة

هذه البلدة القديمة التي أسسها الرومان والمحاطة بأسوار غاية في الارتفاع والقوة اكتسحها المسلمون3 مرتين، ومن أحجارها وأثارها بنيت طرابلس فيما بعد4.

عن مدينة طرابلس القديمة

شيدت طرابلس القديمة أيضاً من قبل الرومان، ثم تملكها القوط، وأخيراً

1 - كذا في الأصل Kingdom of Tripoli، وكذلك بينها وبين زوارة - (الترجم)، وقد كان عند زوارة أن هرم فرسان
2 - يخلط "بروان" بين زوارة والزاوية في تعليقه، وكذلك بينها وبين زوارة - (الترجم)، وقد كان عند زوارة أن هرم فرسان
القدسي يوحنا بالملحة خت قيادة "ليون ستروزي" L. Strozzi، يوم 16 أغسطس 1551م، وكانت هذه الهرمة، مضافة إلى فنشلهم في السيطرة الكاملة على طرابلس، هي بلا ريب التي جعلت هؤلاء الفرسان يرفضون عرض الملك شارل الخامس المهدي عليهم، إذ لم يكن لديهم مزيد من التحمل لتناعب أفريقيا (بروان).
3 - الأصل: "المحمديون" Mahumetans.
4 - Lebda - Lepda - Lebda - Lepida - هي لبة الكبرى Leptis Magna وقد وقع ليو هنا في خطأ فان لبة أسسها الصياديون كمستقر، وازدهرت خت حكن الرومان رغم أنها ظلت محتفظة بصفتها الفينيقية إلى النهاية بسبب اتصال وتزاوج المستوطنين بالنوميديين (يعني السكان الأصليين) الجاويين الذين يتكلمون اللغة البربرية، وخلال الاحتلال الوندالي دمر جنسريك Genserik أسوار لبة وحصناتها كما هي سياسته المعتادة في تدمير حصينات أفريقيا، حتى هاجر السكان من المدينة وبسبب وقوعها خت طائلة البرابرة، فلما جاء جستنيان أعاد بناء أسوار لبة وصبراته، وفي عهد قسطنطين الثاني (647 - 8 م) غزا لوانة (الذين يقول رينيل Renell إن كلمة "ليبيا" منهم) وهم قبيلة بربرية معروفة، غزوا لبة، هؤلاء الغزاة بالإضافة إلى رمال الصحراء، جعلت من لبة مكاناً لا يحتمل العيش فيه، حتى هجرها أهلها تدريجياً إلى طرابلس التي بنيت على أنقاض Oea القديمة، وقد أشار كل من سكيلاس وسترابو وبتليموس وبونيتوس إلى لبة باسم نيابوليس Neapolis ويقترح بارزل Bartil أنه اسم حي من أحياء المدينة، وقد جعل موقع لبة التجاري، الذي يفضل موقع طرابلس كثيراً، قاطنيتها على حالة من الثراء، حتى قدرت الجزيرة في الوقت الذي كانت فيه خت سيطرة قرطاجنة بتالنت Talent يومياً (666 جيها الجزائرياً) بعمله نهاية القرن التاسع عشر - (الترجم)، وكان أهلها يدفون - وهم خت حكم الرومان - ضريبة مقدارها 300,000 رطل من زيت الزيتون سنوياً، وكان لهم دستورهم اليوناني كما تظهر النقوش، وكان آخر ذكر للبلدة في نص طلسي عام 482 ميلادية - (براون).

جُد البحر مسافة ميل ضحلاً حتى لا يكاد عمقه يبلغ سره الإنسان واقفاً. بل إن بعض الناس يرى أن مدينة طرابلس ذاتها كانت تقع في الأمانة الغابرة في مكان أمعن نحو الشمال، غير أن غمر البحر المستمر دفعها وجعلها تبنى شيئاً فشيئاً ناحية الجنوب، والدليل على هذا أنه لا تزال توجد آثار بيوت مغمورة في بعض مواقع من البحر.

وقد بنيت في هذه المدينة مساجد2 حسنة كثيرة ومدارس، ومستشفى أيضاً لرعاية المعوزين من أهلها ولراحة الغرباء عنها. والطعام (المقدم في هذا المستشفى) محلي بسيط غابة، متكون من البازين3 المذكور أنفاً المعمول من دقيق الشعير. وُجد أن تلك البلاد تنتج كميات قليلة من الشعير، حتى ليحسب من السرارة الأغنياء من كان لديه خزين مقداره (بشّل) أو اثنان من الجيوب4. ومتهن أغلب المواطنين التجارة، لأن طرابلس - في موقعها بالقرب من نوميديا (الجزائر) وتونس - لا يوجد بينها وبين الإسكندرية بلدة ذات بال، كما أنها ليست على بعد كبير من جزيرتي صقلية ومالطة، وفي ميناء طرابلس ترسو السفن البندقية كل عام حاملة معها كمية هائلة من البضائع.

وقد كانت هذه المدينة خاضعة لملك تونس. غير أنه حين حاصر أبو الحسن - ملك فاس - تونس اضطر ملك تونس للفرار مع أعزابه إلى الصحاري. وعلى أية حال، فإن ملك تونس أبى إلى ملكته بعد هزيمة أبي الحسن غير أن رعاياه بدأوا يقاومونه، حتى اضطرت المصالح العامة كثيراً بسبب الفتن والحروب الأهلية، ومن ثم حرك ملك فاس، ذو العقل الحصيف، في السنة الخامسة من الحرب

1 - هذه النظرية عن غزو البحر لا يمكن قبولها كما هي، فالبحر على هذا الجزء من الساحل ضحل، ويمكن في حالة الجزر أن تخاض المسافة جزيرة جربة إلى الشاطئ في طريق يسمى (طريق الجمل)، والسبب الرئيسي يكمن في أن هذا الجزء يطمر بالرمال التي تذرهما عليه رياح الصحراء باستمرار، وهذا الطمر أكثر الآن من أي وقت مضى بسبب نقص الزراعة والفلاحة والعمارة، ونتيجة لعدم ترابط التربة بالنباتات جارت الصحراء في بعض المواقع على أسوار طرابلس ذاتها، وهي بلا شك غمرت ما كان يوماً أرضاً زراعية، (براون).
2 - الأصل: معابد Temples - المترجم.
3 - الأصل: بسيس basis غير أن السياق يدل على أن الصواب هو (البازين) - المترجم.
4 - Bushell مكبال إنجليزي للجيوب - المترجم.

الأهلية المذكورة، نحو مدينة تونس وكسر الملك هناك وأجبره على الهرب إلى قسنطينة.

وهناك ضرب عليه حصاراً شديداً حتى رأى أهل قسنطينة أنه لا قبل لهم بمجابهة ملك فاس، ففتحوا أبواب مدينتهم له وجيشه كله، وعليه أخذ ملك تونس أسيراً إلى فاس وسجن بعد ذلك مدة في قلعة سبتة، وكانت طرابلس في تلك الفترة قد بوغت بأسطول جنوي مكون من عشرين قلاعاً وأحتلت وأخذ أهلها أسارى، ولما أعلن ملك فاس بالنبأ أعطى الجنويين خمسين ألف دوقية شريطة أن يدع المدينة ويحكمها في سلام، ولما سلم الجنويون المدينة اكتشفوا، بعد رحيلهم، أن أغلب الدوقيات مزيفة1.

ثم عاد ملك تونس إلى ملكته، بعد أن أطلق أبو سليم ملك فاس سراحه، وبقي الحكم لديه وفي خلفه حتى قتل أبو بكر بن عثمان2 مع ابنه الصغير في قلعة طرابلس على يد ابن أخ له اغتصب بعد ذلك الملك، وقد قُتل هذا الأخير في معركة خاضها ضد عبد المؤمن3 الذي صار بعدها سيد طرابلس، وجاء من بعده ابنه زكريا4 الذي مات بعد أشهر قليلة بالطاعون، واختير من بعد

1 - لا - حدث هذا عام 1355م، على يد "فيليب دوريا" Ph. Doria أمير بحر جمهورية جنوا الذي قام بعمله دون تفويض من حكومته، ولما كانت هذه الحكومة على وفاق مع طرابلس وخوفاً من النتيجة على تجارهم مع تونس وساحل شمال أفريقيا شجبت هذا العمل، أما القراصنة الجنوبيون فقد مكثوا في طرابلس حوالي أربعة أشهر ثم سمح لهم بالعودة إلى جنوا ولم ينلهم سوى عقاب رمزي، ويقال إن فدية تفاوضت فيها جنوا عن طريق ابن مكي حاكم تونس دفعت لهم، (براون).

ويورد ابن بطوطة في (رحلته) على لسان ابن جزي أنه لما استولى العدو على طرابلس ورأى أبو عنان أن إرسال الجيوش إلى نصرتها صعب ولا يتأتى لبعده الأقطار "كتب إلى خدامه ببلاد أفريقية أن يقدوها بالمال، فدفعت بخمسين ألف دينار من الذهب العين، فلما بلغه خبر ذلك قال: الحمد لله الذي استرجعها من أيدي الكفار بهذا الفخر اليسير، وأمر للحن بيعت ذلك العدد إلى أفريقية، وعادت المدينة إلى الإسلام على يديه".

ويرجع البعض الفضل في افسداء طرابلس إلى أحمد بن مكي حاكم قابس ويقال: إن أبا عنان تراخى في الاستجابة لندائه بجمع البلع الذي طلبه الجنوبيون، فجمع هو من أهل قابس والجريد والحامة اللازم، ولما علم أبو عنان بالأمر بعث إليه بالمبلغ ليرده على أهله فرفض، فعقد له إمارة طرابلس حتى تونس عام 766هـ - انظر: ولاة طرابلس، ص 127 - (المترجم).

2 - ولاة والده عثمان بن محمد، أمير تونس، على طرابلس عام 858 هـ وكان له ابن أخ اسمه يحيى بن محمد المسعود (يدعوه الناب في "النهج العذب" زكريا) تنازل له جده عن الأسرة، فشق أبو بكر عصا الطلعة وحارب ابن أخيه فكانت الدائرة على أبي ققتله ابن أخيه يحيى، وكان آخر وال فحفي على طرابلس، (المترجم).

3 - عبد المؤمن بن علي، خليفة ابن تومرت منشئ دولة الموحدين.

4 - زكريا المسعود - أمير تونس.

زكريا مكمين 1 بن حسن وابن عم زكريا ملكاً، فلما بدأ طغيانه على الأهالي طرده وأخرجوه من المملكة. صم جاء إلى العرش الملكي شخص من الأهالي وكان حاكماً عادلاً متواضعاً. 2. لكن الملك المطرود أرسل جيشاً من الجنود ضد طرابلس. وقد خسروا المعركة وفروا جميعاً. بعد ذلك صار الملك الذي بدأ حكمه بتواضع طاغية جداً، فأغتاله بعض أقاربه، واختار الناس أحد الوجهاء من كان يعيش حياة صوفية وعينوه رغباً عن مشيئته حاكماً لهم. 3. وهكذا ظل حكم مدينة طرابلس في يده وفي يد عقبه حتى جاء الوقت الذي أرسل فيه الملك فريدناندو أمير البحر (بيدرو نافارو) 4 ضدها، وقد باغت (بيدرو) المدينة وأخذ معه منها أسرى كثيرين. وأرسل حاكم طرابلس وزوج ابنته (صهره) أسيرين إلى (مستينا). وظل هناك بضع سنوات سجنين حتى أطلق الإمبراطور (شارلز الخامس) سراحهما، وعادا إلى طرابلس التي خربها النصارى. وقد أعيد إسكان طرابلس وأحييت قلعتها بأقوى الأسوار - فيما أعرف. وهذا الشيء نفسه ينطبق على مدن ملكة تونس. 5.

عن جبال تفرن ونفومة

هذه الجبال العالية الباردة تبعد عن الصحراء، وعن جربة، وعن صفاقس.

1 - آخر حاكم حفصي، وذلك سنة 865 هـ - 1460 م.

2 - يعني سيدي منصور، (المترجم)

3 - يذكر الباروني في كتابه "فريسان القديس يوحنا في طرابلس" اسم رجل يدعى يوسف، وكان أحد السراة اختاره أهل طرابلس بعد مقتل الشيخ منصور، ويرجح طاهر الزاوي أنه من يسميه النائب: محمد بن الحسن الذي استغله بنو غراب لتنفيذ مآربهم، وبينما يقول "ليو" إن الحكم استمر في عقبه نرى أن يوسف هذا مات بالطاعون وحكم بعده شخص يدعى مامي، ثم جاء انتخاب الطرابلسيين بالإجماع لرجل صالح هو عبد الله بن شرف "المربط".

4 - هذا في عهد عبد الله بن شرف سنة 926 هـ - 1510 م.

5 - هذا القسم من تاريخ ليو مضطرب وغير دقيق للغاية، فقد احتل "بيدرو نافارو" طرابلس عام 1510م، وكان يحكمها قبله لمدة طويلة بنو عامر وقد تغلب أبو فارس (أمير تونس) على آخر حاكم من تلك الدولة، وفي إبان هجوم نافارو على طرابلس كانت المدينة والمنطقة الجاورة تحت حكن شيخ مستقل، وقد دافع أهل المدينة عنها شارعاً بعد شارع وبينما بعد بيت، ولما تم احتلالها هجرها أهلها وبعض التجار الجنوئين الذين كانوا هناك....

وفي عام 1530م أعطى الملك "شارلز الخامس" طرابلس ومالطة لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا خرجوا لتوهم من رودس، وقد طردهم سنان باشا ودرغوت عام 1551م، وبعد هذا ظل البلد - وبعد هذا ظل البلد - إلا لفترات قصيرة - في يدي الأتراك وكان رجال البحر الطرابلسيون مصدر ضيق للسفن الأوروبية حتى أن الأساطيل الأوروبية كانت تقبلها بين الجن والأخر، وبعد عام 1714م حكم أحمد باشا القرمانلي وأعاقبه البلاد كدولة مستقلة، مع خضوع أسمي للسلطان العثماني - تماماً كما فعل بابا تونس، وفي عام 1835 عاد الحكم العثماني إليها حتى الآن (1895م)، (براون).

حوالي ثلاثين ميلاً، وتنتج قدرًا قليلاً جداً من الشعير، ويتصف السكان بالشجاعة وليسوا من أهل السنة 1، وهو يتبعون مذهب شيخ القيرون في أغلب المسائل، وليس هناك أي طائفة أخرى من الأعراب تتبع المذهب ذاته، وفي تونس كما في المدن الأخرى - هم يكسبون قوتهم من أشد الحرف انحطاطاً، ولا يجراون على الجهر بمذهبهم.

عن جبل غريان

هذا الجبل المرتفع البارد الذي يبلغ طوله أربعين ميلاً، وخمسة عشر ميلاً عرضاً، والمفصول عن الجبال الأخرى بصحراء رملية، يبعد عن طرابلس بنحو خمسين ميلاً.

وينتج هذا الجبل قدرًا من الشعير والتمور التي سرعان ما تفسد إذا لم تستهلك وهي طازجة، ويوجد هنا أيضاً وفرة من الزيتون، حيث ينقل زيت غزير من هذا الجبل إلى الإسكندرية ومدائن أخرى، وليس ثمة زعفران في أي بقعة من بقاع العالم أفضل مما بنيت هنا، وهو يباع بثمن باهظ جداً نظراً لجودته، ويجمع للضريبة السنوية من هذا الجبل ستة آلاف دينار وحمولة خمسة عشر بغلاً من الزعفران، وأهل الجبل في ضيق دائم بما يفرضه عليهم ملك تونس والأعراب من إتاوات، ولهم بعض القرى الصغيرة فوق هذا الجبل 2.

عن جبل بني وليد

هذا الجبل، الذي يبعد مائة ميل تقريباً من طرابلس، يسكنه أشجع الناس وأشدهم، يعيشون بحرية مطلقة وعلى حالة من الحرب دائمة مع أهل الجبال التالية وصحراء نوميديا.

1 - الأصل: ويتكروون سنة محمد.

2 - جبل بركاني ارتفاعه 2000 قدم عامر بالسكان جنوب طرابلس، يعيش كثير من سكانه في بيوت منقورة في الجبل، ولا تزال زراعتهم للزعفران مشهورة، رغم أنها نقصت كثيراً بسبب الطغيان والفتن، (براون).

عن القلعة المحمّاة قصر أحمد

بنى هذه القلعة - على شاطئ البحر الأبيض المتوسط - قائد جاء بجيش إلى أفريقيا. وهي تقع غير بعيد من طرابلس. وقد خربها الأعراب أخيراً¹.

عن قلعة الشبيكة

شيدت قلعة الشبيكة² في نفس الفترة التي جاء فيها المسلمون إلى أفريقيا تقريباً، وكانت في الأزمنة الخالية أهلة بالسكان. ثم دمرها الأعراب وهي الآن تأوي بضعة صيادين فحسب³.

عن القلعة المحمّاة قصر حمان

أسس هذه القلعة المسلمون على ساحل البحر الأبيض المتوسط ثم دمرها من بعد ذلك الأعراب⁴.

عن القرية 5

أما وقد تتبعنا حتى الآن الجبال، فإنه يبقى أن نتحدث قليلاً عن بعض القرى والديساكر والأقاليم، ثم نَصِفُ بعد ذلك، على نَسَقٍ.

مدن نوميديا، ونبدأ بالقرية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ذات النخيل الكثير، إن الحقول هناك جافة وقاحلة، ومع هذا فهي تأتي بشيء من الشعير يقوم بأود السكان⁶.

عن قرقارش 1

هي منطقة أو مزرعة صغيرة تحتوي على كهوف ذات عمق عجيب من حيث (كما يقولون) أخذت الأحجار التي شيدت بها طرابلس القديمة، لأنها ليست بعيدة من تلك المدينة.

عن قرية صرمان

هذه القرية الواسعة الواقعة غير بعيد من طرابلس، يكثر فيها النخيل لكن لا حبوب تنمو هناك².

عن القرية المحمّاة زاوية بن جربوع

هذه القرية، الواقعة قريباً من ساحل البحر الأبيض المتوسط، تنتج كمية عظيمة من التمر، ولا تنتج حبوباً مطلقاً³، ويسكنها أناس متدينون⁴.

عن قرية زنور

هذه القرية الواقعة كذلك بالقرب من البحر الأبيض المتوسط، على بعد اثني عشر ميلاً من طرابلس، يقطنها صناع مهرة كثيرون، وفيها وفرة من النخل والرمان والخوخ، وقد أصبح سكانها في حالة من العوز منذ أن استولى النصارى على طرابلس، ولا يزالون يتصلون بأهل طرابلس ويحملون إليها التمور لبيعها هناك⁵.

1 - Garell Gare - ونفس ملاحظتنا على قار تنطبق على قار القار، ورغم أن السياق قد يساعد على تحديد الموقع تقريباً إلا أنها لم تذكر عند "مرمول" ولا "ديلاشيل" أو في أي مصدر آخر أعرفه، والقرية (Gara) عند بطليموس) جزيرة صغيرة قرب عين النافقة Ain Naga قريبة من شاطئ سرت الكبرى، وهناك موقع لولي عند زنور يسمى El-Gar بجانب آثار حصن، (براون).
2 - Sarman - وصف "مرمول" صرمان بأنها بلدة كبيرة دون حصون، مأهولة جيداً بالسكان من بربر الحرشا Hoarsa Berbers الذين كانوا يعترفون بسلطات طرابلس ولديهم نخل كثير، (براون).
3 - The Zauia أو قبر سيدي Barbah قرب زنور، يسميها "مرمول" Zauit أو Zaort سيدي جربوع، (براون).
4 - كذا في الأصل Certiane religions persons وهو يعني "الرابطين" وهي "تعرف أيضاً بوطن بلد الرابطين، وهي قرية ذات نخيل بأسق... ورأيت منهم أقواماً قد نخلت من العبادة أبدانهم واصفرت ألوانهم". أنظر: ليبيا في كتب الجغرافية والرحلات ص 128، (المترجم).
5 - يسميها "مرمول" Gienzur، وهي الآن مكان فقير في منطقة غنية ذات ماء كثير، يسكنها 4 أو 5 آلاف إنسان، (براون).

1 - قصر أحمد، ما سمي باسم أحمد بن عمر الفائد الأعلى، أو أحمد بن حسن الكلبي، وقد اختفى قصر أحمد الآن رغم أن مكاناً قريب مصراته (رأس بو شعيفة) لا يزال يعرف بهذا الاسم، وهو معلم بغير أحد الرابطين، (براون).
2 - وتكتب أيضاً: Sudeycag Sueka يضعها "مرمول" قرب الرأس المثلث Cape Trietri عند بطليموس، (براون).
3 - كذا في الأصل: "and now it harborethe a few fishers only"
4 - هي التي يسميها مرمول Kasr Husn بناها جند (عقبة بن نافع) بعد خراب طرابلس القديمة، (براون).
5 - الأصل: القرية السماة القار.
6 - القرية (Della Cella, p. 80) حصن وبها برج منتهدمان "وشيء يسميه البعض الصهرج"، وكانت مأهولة بالبربر الخاضعين لرئيس ناجوراء، (براون).

عن قرية الصروهي

تقع على مسافة ستة أميال من طرابلس، وتنتج البساتين هناك قدراً كبيراً من البلح وجميع أنواع الفاكهة الأخرى¹.

عن سهل تاجوراء

هذا السهل الواقع على بعد ميلين شرقي طرابلس، يحتوي على ضياع عديدة مثقلة جداً بالنخل وفواكه أخرى. وقد كانت مباحثة طرابلس مفيدة جداً لهذا الموضوع؛ فقد لجأ إليه عدد كبير من الأعيان.

ويني السكان، وهو قوم جهلة أجلاف مدمنون على السرقة والنهب، أكواخاً بجريد النخل، وطعامهم خبز الشعير والبازين السابق وصفه، وجميع من في المنطقة خاضعون لملك تونس والأعراب، عدا أولئك الذين يعيشون في هذا السهل².

عن إقليم مملاته

يقع هذا الإقليم على البحر الأبيض المتوسط على بعد حوالي خمسة وثلاثين ميلاً من طرابلس، وهو مكتظ بالقرى الغنية والحصون والسكان، وبه كثرة من أشجار الزيتون والنخيل، وأهله غير مقبدين بأي سلطة غريبة عنهم (أجنبية)، ولهم زعيم من أنفسهم يدير شؤونهم العامة ويقود معاركهم ضد الأعراب، ويبلغ عدد جنود هذا الإقليم حوالي 5000 جندي³.

عن إقليم مصراته

هذا الإقليم الواقع أيضاً على البحر الأبيض المتوسط، على بعد مائة ميل تقريباً من طرابلس، به عديد من القرى في السهول وعلى الجبال¹، والسكان ذوو ثراء ولا يدفعون ضريبة إطلاقاً، وهم على صلة بالبنادقة الذين يأتون إلى هذا الإقليم بسفنتهم، حاملين بضائع البندقية إلى نومديا، وهناك يبادلون البضائع بالعبيد والمسك والزباد، التي يؤتي بها من بلاد السودان (أنبوبيا)².

عن صحراء برقة

تبدأ هذه الصحراء من أقصى حدود مصراته، وتمتد شرقاً حتى مشارف الإسكندرية، ويبلغ طولها ألفاً وثلاثمائة ميل، وعرضها حوالي مائتي ميل، وهي مكان قاس غير مسرر، خالية تماماً تقريباً من الماء والحبوب، وقد كانت هذه المنطقة خالية من السكان قبل أن يغزو الأعراب أفريقية، أما الآن فإن بعض الأعراب يحيون هنا حياة شظف ومسبغة بمنأى عن الأماكن الأهلة، وليس لديهم حبوب إطلاقاً، غير أن الحبوب والضرورات الأخرى تجلب إليهم بواسطة البحر من صقلية.

عن منطقة تاورغاء

هذه المنطقة الصغيرة التابعة لمملكة طرابلس والمناخمة لصحراء برقة، تحتوي على ثلاثة حصون تعرف كلها بالاسم ذاته، وهي وفيرة النخيل لكنها معدومة الحبوب تماماً، وبسبب بعد السكان كثيراً عن المدن الأخرى فأنهم يحيون أسوأ حياة³.

1 - كذا في الأصل: Mountains، ولا جبال في مصراته، ولعله يقصد كثبان الرمل ومنطقة شاطئ البحر المرتفعة شمالها - وهي عامرة مأهولة، (الترجم).
2 - تكتب Tajura أو Tajuia وعند "مرمول" Tachore، وهي مجموعة من القرى المتناثرة محاطة بالبساتين وأشجار النخيل والزيتون ويشغل الناس فيها بالزراعة وإنتاج الخضروات وصناعة العباءات الخشنة والحصن من سعف النخل. (براون).
3 - بسميها "مرمول" Mecellat، ولا يزال سهل مسلاته العظيم مزدهراً ومأهولاً بالسكان وهو مشهور بمهارة أهله الصناعية، وربما كانت قلعة مسلاته - في الطرف الشمالي لقرية القصبات - شيدت على يد الأسبان في نهاية القرن السادس عشر. (براون).

3 - Teorruigo - هي Tegerri التي يذكرها ليون Leon في كتابه Travels in N. Africa صفحة 239، وهي Tegerri

عن أرض زليتن

وهي تقع على البحر الأبيض المتوسط، وتحتوي على عدد كبير من القرى مليئة بالنخيل، وبسبب من أن السكان يعيشون قريباً من البحر فإنهم على صلة قريبة بأهل صقلية ومصر.

عن منطقة غدامس

هذه المنطقة الشاسعة ذات القلاع والقرى العديدة تقع إلى الجنوب من البحر الأبيض المتوسط بحوالي ثلاثمائة ميل. ويدفع قاطنوها، وهم أهل تمر كثير وأنواع أخرى من السلع يترحلون في بلاد الزنوج، يدفعون الضرائب للأعراب على الرغم من أنهم كانوا لوقت ما خاضعين للملك تونس وأمير طرابلس. أما الجيوب واللحوم فهي نادرة هنا بشكل مدهش².

عن منطقة فزان

يضم هذا الإقليم الفسيح عدداً كبيراً من القلاع والقرى، ويسكنه قوم ذوو ثراء وهو يتاخم ملكة أقاديز والصحراء الليبية وأرض مصر. وهو يبعد عن القاهرة برحلة ستنين يوماً تقريباً - دون أن يتخلل الرحلة أي قرية فيما عدا أوجلة التي تقع على حدود ليبيا.

ولإقليم فزان هذا حاكم خاص به، وهو يوزع عائدات الإقليم كله على هواه، ويدفع بعض الضريبة للأعراب الجاورين، وتندر هنا الجيوب، كما يندر اللحم، فيضطرون لأكل لحم الجمال فحسب.

عند بارث Barth في رحلته (مجلد 5 - ص 242) أفصحى مدن فزان (براون). وهذا غلط من "براون" لأن المقصود ناورغاي وليس جري في صحراء فزان، بدليل قول "ليو" أنها تابعة لطرابلس ومناخمة حدود بركة، وهذا ما عرفت به تاورغاي دائماً. (المترجم).
1 - Lasliten - وهي Yaslite عند "مرمول" (براون).
2 - Ghadames - هي كوداموس Cydamus عند بطليموس، مكان لا يزال حسناً للتجارة الرائجة حيث يلتقي التجار من تمبوكتو وتوات، ويقطن هذه المنطقة نفس السلالة البشرية التي تعيش في كاتو Kano وكاتسينا Katsena وفي مناطق أخرى من السودان. (براون).

عن منطقة أوجلة

أوجلة هي جزء من الصحراء الليبية وتبعد عن النيل بأربعمائة وخمسين ميلاً، وهي تحتوي على ثلاثة حصون وبعض القرى. وأشجار النخيل هنا وفيرة جداً، لكن على ندرة في الجيوب إلا أن يجلبها إلى هنا التجار من مصر.

وعبر هذه المنطقة يمر طريق الصحراء الليبية من موريتانيا إلى مصر.

عن بلدة هرت

سرت بلدة قديمة بناها (حسب رأي البعض) المصريون، وحسب رأي آخرين بناها الرومان. (وكما يفترض بعض آخر) بناها الأفارقة، وقد خربها المسلمون، رغم أن ابن الرشيدي² يؤكد أن الرومان هم الذين اكتسحوها، لكن الآن لم يبق منها سوى آثار السور.

1 - Atgila هي التي عرفها هيروdot على أنها مركز المنطقة التي كانت النمامونيس على سواحل سرت الكبرى بجمعون النمر منها، ومن الغريب أن "بانسو" يذكر أنه حين زارها خريف 1825 م، جاء البدو الرحل لينزودوا من ثمر أوجلة - تماماً كما كان يفعل أجدادهم منذ 500 عام قبل الميلاد. أنظر: Voyages dans la Cyrenaque p. 263.
ويقول عنها أبو الفداء أنها جزيرة ذات نخل وبتابع في وسط الرمال بين المغرب والواحات، ويصفي الإبريسي ليصفها بأنها بلد صغير مأهول أغلب سكانه غارينعاملون مع أرض السودان، أما "هاريمان Harniman" الذي كان أول أوروبي يزورها في العصور الحديثة - رغم أنه ترك بشذرة قصيرة عنها - فقد وصف المكان بأنه يتكون (عام 1798م) من بيوت جيرية سنية البناء ذات طابق واحد، في وسطها ساحة، ويمتنع أغلب السكان منها فعودية (لا حركة فيها) رغم أن بعضهم يسافر مع القوافل بين القاهرة ومرزق، وحول البلدة جد التربة الرملية خصبة وجيدة والماء وفيراً، لكن الجيوب - تماماً كما يقول ليو - نادرة للغاية، حتى أنها لا تسد حاجات الناس هناك، فيحصلون على حاجتهم عن طريق مبادلتها بالأغنام مع عرب بنغازي. (براون).

2 - لم أعتز على المصدر الذي يستند إليه "ليو" في هذا النص. (المترجم)